الله تعالى في العصر الحالي وإيثارهم الرّاحة وزهدهم عن اقتحام بعض المجتمعات بالحقّ الذي يحملون فخسروا ، في الوقت الذي اقتحمها الآخرون بباطلهم فنجحوا . إنّ هذه الحقيقة المستقاة من أدقّ المصادر من أسباب ارتفاع نسبة المسيحيّة في أكبر البلاد الإسلاميّة أعني أندونيسيا على سبيل المثال .

إنّ يوسف عليه السّلام يبيّن في الآية الكريمة الأولى فضل الله تعالى عليه بقدرته أن ينبّىء الفتيين بنوع الطّعام الذي يأتيهما في كلّ مرّة قبل أن يأتيهما . إنّ القول هنا : « قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلّا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا على لسان عيسى ابن مريم عليه السّلام في سورة آل عمران[1] : ﴿ وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم . إنّ في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ والحقيقة أنّنا بشأن هذه الآية الكريمة من سورة يوسف أمام أوّل نصٍّ في السّورة يفيد أنّ يوسف عليه السّلام قد اصطفاه الله تعالى بنعمة النّبوّة : وكأنّ ربّ العزّة الذي كتب على يوسف عليه السّلام أن يُسْجَن ظلماً ، ولله تعالى الحكمة البالغة ، قد أكرم يوسف عليه السّلام في السّجن ذاته بنعمة النّبوّة من ناحية وبآيته وهي القدرة الفريدة على تعبير الرّؤى من ناحيةٍ أخرى .

ويبيّن يوسف عليه السّلام للفتيين أنّ ربّ العزّة الذي ربّى يوسف بنعمه وآلائه هو مصدر ذلك العلم اللّدنيّ : « ذلك ممّا علّمني ربّي » .

ويبيّن يوسف عليه السّلام السّبب الذي اصطفاه الله تعالى من أجله بتلك النّعم والآلاء وهو أنّه عليه السّلام ترك دين قومٍ في تلك البيئة لا يؤمنون بالله تعالى واحداً أحداً فرداً صمداً ولا يؤمنون باليوم الآخر فالحياة الأولى في نظرهم نهاية المطاف : « إنّي تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » . وإنّ لسان حال يوسف عليه السّلام يستمرّ قائلاً للفتيين : وأنتما تستطيعان بإذن الله تعالى أن تنالا حظّكما الموفور من فضل الله تعالى الكبير وخيره العميم حينما تتركون الشّرك الذي عليه قومكم وتؤمنون بالله تعالى الواحد ، وتؤمنون بيوم القيامة وتعملون من أجل ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

وفي الآية الكريمة الثّانية يبيّن يوسف عليه السّلام للفتيين البديل الصّحيح للشّرك وهو الإسلام . ولمّا كان يوسف عليه السّلام هو الكريم ابن الكريم يعقوب عليه السّلام ابن الكريم إسحاق عليه السّلام ابن الكريم إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء فإنّ جملة : « اتّبعت » هي التي تجيء على لسانه عليه السّلام . إنّه عليه السّلام اتّبع ملّة جدّه إبراهيم عليه السّلام ، وملّة

---

(١) الآية ٤٩ .

إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ، وملّة والده يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام . أمّا هذه الملّة فهي الحنيفيّة السّمحة التي بعث الله تعالى بها إبراهيم عليه السّلام واتّبعها أبناؤه من ناحية ، والتي بعث الله تعالى بها في صورتها الكاملة محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه من ناحيةٍ أخرى .

ويقارن عليه السّلام بين شقاوة الشّرك وسعادة الإسلام . إنّه عليه السّلام يقول : ما كان ينبغي لنا أن نشرك بالله تعالى من شيءٍ من الأصنام والأوثان . وبطبيعة الحال إنّما يريد يوسف عليه السّلام الفتيين وقومهما المشركين ولكنّه أدب الدّعوة إلى الله تعالى يلقيه علينا يوسف عليه السّلام من منبر القرآن الكريم . إنّه عليه السّلام يضع حقائق وقواعد . وإنّ كلّاً على علمٍ بالقاعدة التي تصحّ في حقّه . ويبيّن يوسف عليه السّلام للفتيين أنّ نعمة توحيد الله تعالى التي بعث الله تعالى بها النّبيّين والمرسلين من مظاهر فضل الله تعالى على الموحّدين الذين اعتنقوها من أمثال يوسف عليه السّلام وحزب الإيمان ، وعلى النّاس جميعاً وقد هداهم الله تعالى سبله ولكنّ أكثر النّاس للأسف لا يشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه بل يكفرون ، وبدلاً من أن يوحّدوه جلّ وعلا هم يشركون معه جلّ وعلا في العبادة سواه على نحو ما يفعل آنذاك المجتمع المصريّ الذي ينتمي إليه الفتيان .

وفي الآية الكريمة الثّالثة يلقي يوسف عليه السّلام على الفتيين سؤالاً تقريريّاً في ألطف عبارة تملك قلبيهما بعد أن ملك عليه السّلام لبّيهما . إنّ الفتيين هما صاحبا يوسف عليه السّلام في السّجن ! : « يا صاحبي السّجن » ويلاحظ أنّ يوسف عليه السّلام يكرّر التّعبير ذاته في الآية الكريمة التي يعبّر فيها رؤيي الفتيين . أمّا السّؤال فهو : « أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار » إنّ الله تعالى واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ ، وإنّ الآلهة متفرّقة ومبعثرة ومتنوّعة . وإنّ الله تعالى هو القهّار القادر على كلّ شيءٍ الفعّال لما يريد الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، أمّا الآلهة المزعومة فعاجزة فهي لا تخلق شيئاً وهم يُخْلَقون ، وهي لا تملك نفعاً ولا ضرّاً ، ولا تملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا أيّ شيء . وحينما يكون المسئولون عاقلين هل هنالك من جواب على السّؤال سوى الجواب بأنّ الله تعالى الواحد القهّار هو الذي ينبغي أن يفرد وحده لا شريك بالعبادة ؟ لا .

وبعد السّؤال الذي يحمل المسئول على المشاركة الإيجابيّة والذي يشعره بثقل وزنه فينبغي أن يكون جوابه في مستوى المسئوليّة وثقل الوزن وذلك باستعمال العقل في أثناء الإجابة استعمالاً صحيحاً يأتي في الآية الكريمة الرّابعة الدّعوة الصّريحة للفتيين بهجر الشّرك واعتناق التّوحيد ، والمعروف أنّ الدّعوة إلى توحيد الله تعالى هي غاية كلّ داعيةٍ إلى الله تعالى

ونهاية مطافه في التّبشير بدين الإسلام . إنّ يوسف عليه السّلام في النهي عن الشّرك لا يخاطب الفتيين مباشرة كيلا تثار حميّتهما وكيلا يكون منهما ردّ فعلٍ غير محمود ولكن يخاطب الفتيين ضمن مجتمعهما المشرك . إنّ يوسف عليه السّلام يقول وكأنّه يخاطب ذلك المجتمع وفيه الفتيان : ما تعبدون أيّها النّاس من دون الله تعالى إلّا أسماءً لا مسمّيات تحتها سمّيتموها أنتم وآباؤكم المشركون من قبل . ما أنزل الله سبحانه وتعالى بتلك الأسماء للآلهة والمعتقدات الفاسدة من سلطانٍ ولا حجّةٍ ولا برهان . ما الحكم إلّا لله تعالى وحده لا شريك له الذي له دون سواه الخلق والأمر ، وقد أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه وفي ذلك نهيٌ ضمنيّ عن الشّرك . إنّ دين التّوحيد هو الدّين المستقيم المفضي وحده دون سواه إلى الجنّة والنّعيم المقيم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون هذه الحقائق ومن هؤلاء المجتمع الذي ينتمي إليه الفتيان .

ونستطيع أن نفهم أنّ الفتيين تحوّلا مسلمين لله ربّ العالمين ، فقد أشارت السّورة الكريمة في أوّلها إلى أنّ ربّ العزّة يقصّ على المصطفى ﷺ بإيحاء القرآن أحسن القصص . ومن متعلّقات أحسن القصص في نظر بعضهم النّهاية السّعيدة والخاتمة الحسنة . وحينما يتحوّل الفتيان ، وفيهما الذي صُلِبَ ، من الشّرك إلى التّوحيد ، تكون نهاية كلٍّ منهما غايةً في السّعادة والحسن ، لأنّ عبادة الله تعالى وحده لا شريك له الهدف من خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم . وحينما يسلم للإنسان دينه إلى أن يلقى الله تعالى تكون نهايته السّعيدة وخاتمته الحسنة من صميم أحسن القصص .

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

حينما صادف كلام يوسف السّابق منعطفاً غايةً في الأهمّيّة نادى عليه السّلام صاحبيه في السّجن ، بقصد استمالة قلبيهما تلك المرّة : « يا صاحبي السّجن أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار » وإنّ الشّيء ذاته نصادفه هٰهنا . إنّ يوسف عليه السّلام ينادي صاحبيه في السّجن بقصد لفت انتباههما إلى التّعبير المهمّ لكلٍّ منهما والذي يترتّب عليه نتيجةٌ خطيرة في حقّ كلٍّ منهما ، الحياة في حقّ الأوّل والموت في حقّ الآخر . إنّ يوسف عليه السّلام يرتّب في الآية الكريمة التّعبيرين وفق ترتيب الرّؤيين في أولى آيات القسم . أمّا الأوّل وهو السّاقي فإنّ يوسف يعبّر رؤياه له بأنه سوف يخرج من السّجن سليماً

معافًى ، وسوف يعود إلى عمله ساقياً لسيّده الملك ، وسوف يسقي سيّده الملك خمراً . وأمّا الآخر وهو الخبّاز فإنّه سوف يُقْتَل صَلْباً وسوف تأكل الطّير من رأسه .

ويحسم عليه السّلام تأويله بالقول : « قُضِي الأمر الذي فيه تستفتيان » والمعنى انتهى الأمر ونفذ الحكم في الشّأن الذي تطلبان الفتيا في حقه . ويلاحظ مجيء : « تستفتيان » في صيغة الزّمن المضارع الذي يفيد الاستمرار والتّجدد وذلك يتمشّى مع اهتمام الفتيين المستمرّ والمتجدّد للتّعبير ، ذلك الاهتمام الذي فهمناه من مجيء جملة « أراني » في صيغة الزّمن المضارع على لسان الفتيين في الآية الكريمة الأولى في حين جاءت صيغة الزّمن الماضي : « رأى » على لسان يوسف عليه السّلام في الآية الكريمة الرّابعة من السّورة تأكيداً لصغر سنّه وبراءته ، على نحو ما مرّ بنا من قبل .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما : وقال يوسف للسّاقي الذي علم يوسف[1] وأيقن[2] .

اذكرني عند ربّك : أخبر سيّدك الملك بمظلمتي وأنّي محبوسٌ بغير جرم[3] .

فأنساه الشّيطان ذكر ربّه : فأنسى الشّيطان الرّجيم السّاقي ذكر يوسف عند سيّده الملك[4] .

فلبث في السّجن بضع سنين : قال مجاهد وقتادة : البِضع هو ما بين الثّلاث إلى التّسع[5] قال ابن عبّاس : بضع سنين دون العشرة[6] ويقول الطّبريّ[7] : « والصّواب في

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٣١/١٢ .

(٢) الجلالين .

(٣) انظر تفسير الطّبريّ ١٤١/١٢ وتفسير ابن كثير ٤٧٩/٢ .

(٤) انظر الجلالين مثلاً .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٧٩/٢ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٣٣/١٢ .

(٧) تفسير الطّبريّ ١٣٣/١٢ .

البضع من الثّلاث إلى التّسع إلى العشر ولا يكون دون الثّلاث » .

شاء الله سبحانه وتعالى أن يلبث يوسف عليه السّلام في السّجن بضع سنين ، ما بين الثّلاث إلى العشر . وكي ينفذ قضاء الله تعالى بذلك تشير الآية الكريمة إلى أن يوسف عليه السّلام قال للسّاقي وقد أيقن يوسف عليه السّلام أنّه هو النّاجي من الفتيين : اذكر قصّتي عند سيّدك الملك وأنت الذي تسقيه دائماً شرابه ، فأنسى الشّيطان الرّجيم العدوّ اللّدود للإنسان ذكر يوسف عليه السّلام عند سيّده الملك فلبث عليه السّلام في السّجن بضع سنين .

ولا يهمّنا في قليلٍ أو كثيرٍ أن يكون يوسف عليه السّلام قد طلب من السّاقي الذي نجا من الفتيين أن يذكره عند سيّده فور تعبير الرّؤيا للسّاقي أو عند خروجه من السّجن كي يكون الطّلب ذا علاقةٍ وثيقةٍ بآخر لقاءٍ بين يوسف عليه السّلام والسّاقي ، وذلك مظنّة تذكّر السّاقي يوسف عليه السّلام وعدم نسيانه له .

وشاء الله تعالى أن ينسى السّاقي بكيدٍ من الشّيطان الرّجيم يوسف عليه السّلام تماماً ، وشاء الله تعالى أن يذكر السّاقي يوسف عليه السّلام ، ليس يوسف صديقه في السّجن الذي طلب منه ذكره عند سيّده ، ولكن يوسف المعبّر للرّؤى بعد عجز الجميع عن تعبير رؤيا الملك لأمرٍ يريده الله تعالى .

﴿ يوسف عليه السّلام يعبّر رؤيا الملك ويرفض الخروج من السّجن حتّى تثبت براءته ﴾
الآيات (٤٣ ـ ٥٢)

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

وقال الملك : وقال ملك مصر إني أرى في المنام[1] ويلاحظ مجيء جملة أرى في صيغة الزّمن المضارع الذي يفيد الاستمرار والتّجدّد دليلاً على اهتمام الملك بما تئول إليه وذلك على غرار اهتمام الفتيين في السّجن .

يأكلهنّ سبعٌ عجاف : جمع أعجف وعجفاء أي الدّقيق من الهزال[2] .

وأخر يابسات : أي سبع سنبلات يابسات قد التوت على الخضر وعلت عليها[3] .

قالوا أضغاث أحلام : يعنون أنّها أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها ، وهي جمع ضغث ، والضّغث أصله الحُزمة من الحشيش يشبّه بها الأحلام المختلطة التي لا تأويل لها . والأحلام جمع حُلْم وهو ما لم يصدق من الرّؤيا[4] .

بعد أن لبث يوسف عليه السّلام بإرادة الله تعالى في السّجن بضع سنين شاء الله تعالى له أن يخرج من السّجن بواسطة الآية التي اصطفى الله تعالى بها يوسف عليه السّلام وهي تعليمه من تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى . لقد رأى ملك مصر بإرادة الله تعالى رؤيا أزعجته وأقضّت مضجعه وعجز الجميع عن تأويلها . لقد رأى الملك كما جاء في الآية الكريمة الأولى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبع بقراتٍ هزيلات ، ورأى سبع سنبلات خضرٍ قد التوت عليها وعلتها سبع سنبلاتٍ يابسات . ومن البيّن علاقة الرّؤيا ببيئة مصر الخصبة وبطبيعة المنطقة التي يحكمها الملك . ولا نزال مع جملة « أرى » في صيغة الزّمن المضارع دليلاً على اهتمام الملك المستمرّ المتجدّد بما تئول إليه رؤياه . ويطلب الملك من ملئه ووجوه مملكته وأعيان مجتمعه أن يعبروا الرّؤيا إن كانوا قادرين على تعبير الرّؤى وتبيين معناها وما تئول إليه .

وفي الآية الكريمة الثّانية يصرّح الملأ بعجزهم عن تعبير الرّؤى ويعلنون بأنّ رؤيا الملك

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عجف » ٣٢٣ .

(٣) انظر الجلالين مثلاً .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣٤ .

ليست سوى أضغاث أحلام وأخلاط منام . إنّ رؤيا الملك لو كانت حلماً واحداً لأعياهم فكيف بها وهي أضغاث أحلام ومجموعاتٌ من أخلاط المنامات . ويعلنون بصريح اللّفظ أنّهم جميعاً ليسوا بتأويل الأحلام بعالمين .

ومن البيّن أنّ الرّؤيا مخيفةٌ بطبعها ، وقد فرّ الملأ إلى إعلان العجز تحاشياً للرّؤيا المخيفة بطبعها من ناحية ، وتأكيداً لطبيعة عجزهم عن تأويل الرّؤى من ناحيةٍ أخرى .

وهنا يأتي دور السّاقي .

وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

وادّكر : تذكّر[1] فيه إبدالان ، الأوّل إبدال التّاء دالاً ، أصله إذتكر على وزن افتعل ـ مجرّده ذكر ـ تقلب تاء الافتعال دالاً بعد الذّال ، ثمّ قلبت الذّال دالاً لاقتراب المخرجين ، ثمّ أدغمت الدّالان فأصبح ادّكر[2] .

بعد أمّة : عن ابن عبّاس : وادّكر بعد أمّةٍ قال بعد حين[3] .

قال تزرعون سبع سنين دأباً : متتابعة[4] ومتواليات[5] يقول : تزرعون هذه السّبع

(١) تفسير الطّبريّ ١٣٤/١٢ .
(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٨٢/٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٣٤/١٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٨٠/٢ .

السّنين كما كنتم تزرعون سائر السّنين قبلها على عادتكم فيما مضى . والدّأب العادة[1] ومعنى دأباً ملازمةً كعادتكم في المزارعة[2] .

إلّا قليلاً ممّا تحصنون : يقول : إلّا يسيراً ممّا تحرزونه . والإحصان التّصيير في الحصن ، وإنّما المراد منه الإحراز[3] .

فيه يغاث النّاس : بالمطر والغيث[4] .

وفيه يعصرون : العنب والسّمسم وما أشبه ذلك[5] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ السّاقي الذي نجا من القتل في حين صُلِبَ الخبّاز تذكّر يوسف عليه السّلام بعد مدّةٍ ليست بالقصيرة ، وهو قد تذكّر يوسف عليه السّلام المعبّر للرّؤى وليس صاحبه في السّجن ، ويصحّ أنّه سجن ظُلْماً كما سُجن يوسف عليه السّلام ثمّ أُنْصِفَا . وقد أنساه الشّيطان ذكر يوسف عليه السّلام عند سيّده الملك رغم طلب يوسف عليه السّلام منه ذلك . وهذا السّاقي يقول للملأ وربّما للملك كذلك أنا أنبّئكم بتأويل الحُلْم فأرسلوني إلى يوسف الصّديق في السّجن .

والآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ السّاقي ذهب إلى يوسف عليه السّلام في السّجن فلم يعاتبه على نسيانه له ولم يمنعه من عرض طلبه عليه بأن يعبّر له رؤيا الملك رجاء رجوعه إلى النّاس حاملاً لهم تأويل الرّؤيا لعلّهم يعلمون ما ينبغي عليهم علمه فيتصرّفوا في ضوء ذلك العلم .

وفي الآية الكريمة الثّالثة يعبّر يوسف عليه السّلام الشّطر الأوّل من الحلم وهو المتعلّق بالسّبع البقرات السّمان وبالسّبع السّنبلات الخضر . إنّ السّبع البقرات السّمان والسّبع السّنبلات الخضر هي سبع سني الرّخاء . إنّ يوسف عليه السّلام يخبر السّاقي بأنّهم سوف يزرعون سبع سنين متتابعةٍ بجدّ واجتهاد . ومع أنّ جملة تزرعون في صيغة الزّمن المضارع فإنّ المراد الأمر بأن يزرعوا سبع سنين متتابعة بجدّ واجتهاد فما حصدوه من الحبوب عليهم أن يتركوه في سنبله كيلا يتسلّل إليه السّوس إلّا قليلاً ممّا يأكلون من الحبوب التي لا يتمّ أكلها إلا بإخراجها من سنابلها .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣٦ .

(٢) البحر المحيط ٥/٣١٥ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣٧ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣٧ .

والحقيقة أنّ يوسف عليه السّلام بإلهامٍ من الله تعالى ينبّه إلى أحسن وسيلةٍ طبيعيّةٍ لإطالة عمر الحبوب بعد الحصاد بإذن الله تعالى وذلك بترك الحبوب في سنابلها .

والحقيقة كذلك أنّ التّأريخ يشير إلى أنّ يوسف عليه السّلام هو الذي اكتشف بإلهامٍ من الله تعالى نظام النّواعير وذلك برفع الماء إلى أرفع نقطة وتوجيهه بعد ذلك إلى ريّ الأراضي المنخفضة ولكنّها المرتفعة عن مستوى ماء النّيل[1] .

وفي الآية الكريمة الرّابعة يعبّر يوسف عليه السّلام الشّطر الآخر من الحُلْم وهو المتعلّق بالسّبع البقرات العجاف التي تأكل السّبع السّمان وبالسّبع السّنبلات اليابسات التي تلتفّ على السّبع السّنبلات الخضر وتعلو عليها . إنّ السّبع البقرات العجاف والسّبع السّنبلات اليابسات سبع سني الشّدّة . إنّ هذه السّنوات السّبع العجاف تأكل الذي يقدّم لهنّ من طعام والمراد النّاس في تلك السّنوات السّبع العجاف .

والشّيء الذي نودّ أن نشير إليه هو البلاغة بالحذف بشأن السّنبلات السّبع اليابسات في حديث كلٍّ من الملك والسّاقي . لقد تمّ إكمال المحذوف من الكلام في ضوء أكل السّبع السّنوات العجاف للسّبع السّمان على لسان كلٍّ من الملك والسّاقي .

ومن البيّن أنّ تعبير الرّؤيا هو منتهى ما يُطْمَعُ فيه من يوسف عليه السّلام الذي أُودِعَ السّجن ظلماً وعدواناً بسبب عفّته ، ومع ذلك فإنّ يوسف عليه السّلام الذي لم يبخل على القوم بالعلم الذي علّمه الله تعالى بشأن سني الرّخاء والشّدّة لا يبخل على القوم بما علّمه الله تعالى بشأن العام الخامِسَ عَشَرَ الخارج عن دائرة الرّؤيا . إنّ يوسف عليه السّلام يبشّر القوم بالعام الخامس عشر الذي يغاث النّاس فيه بالمطر والغيث ، والذي يعصر النّاس فيه ما اعتادوا عصره من عنبٍ وسمسمٍ وبرتقالٍ وقصب سكّر وما إلى ذلك ممّا يصحّ عصره .

ويلاحظ أنّ السّياق يستعمل كلّاً من السّنة والعام وفق طرائق العرب في تعبيرها . إنّ السّنة تستعمل مع الشّدّة أكثر ، وإنّ العام يستعمل مع الخصب أكثر . وإنّ هذا هو الذي يلاحظ في الآيات الكريمات . إنّ السّنة تستعمل مع الشّدّة أكثر ، فهنالك السّبع الشّداد ، وهنالك الزّرع سبع سنين متتابعة بجدٍّ واجتهاد . وإنّ العام يستعمل مع الرّخاء والخصب . إنّ النّاس يغاثون في العام الخامس عشر ويَعْصِرون .

---

(١) أشرنا إلى نظام الرّيّ هذا في مقدّمة الطّبعة الثّانيّة من كتابنا : الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام مطبوعات تهامة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

قال ما خطبكنّ : ما شأنكنّ وخبركنّ(١) وأمركنّ(٢) .

قلن حاش الله ما علمنا عليه من سوء : قالت النّسوة جواباً للملك حاش لله أن يكون يوسف متّهماً . والله ما علمنا عليه من سوء(٣) حاش : فعل ماضٍ مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة للتّخفيف . والفاعل هو أي يوسف . أي جانب يوسف المعصية . ويجوز أن يكون اسماً منصوباً على المصدر أي تنزيهاً لله(٤) .

الآن حصحص الحقّ : عن ابن عبّاس : الآن حصحص الحقّ ، قال : تبيّن(٥) وظهر وبرز(٦) ووضح(٧) .

أبلغ السّاقي الملك تعبير يوسف عليه السّلام رؤياه ونصائحه وتطوّعه بتقديم البشارة والمعلومات الخارجة عن إطار الرّؤيا والمتعلّقة بالعام الخامس عشر . وسأل الملك عن شخصيّة هذا المعبّر للرّؤيا تعبيراً منطقيّاً ومعقولاً ، وأكبر فيه إخلاص النّصيحة وتطوّعه بتقديم المعلومات المتعلّقة بالعام الخامس عشر ، وكانت المفاجأة كبيرة حينما علم أنّ هذا المعبّر للرّؤيا سجين ، وكانت المفاجأة أكبر حينما ذكر السّاقي يوسف للملك وأبلغه رقيّه إلى مرتبة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٨١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/١٤٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٨١ .
(٤) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٣٦٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/١٤٠ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٤٨١ .
(٧) الجلالين وصحيح البخاريّ ٦/٩٧ .

الإحسان في كلّ شيء ، وقدرته على إنبائه وإنباء الفتى الآخر في السّجن بكلّ أنواع الأطعمة التي سوف تأتي إليهما ، هذا إلى قدرته الفريدة على تعبير الرّؤى . وهكذا شاء الله تعالى ليوسف عليه السّلام النّبيّ المختار أن يخرج من السّجن . وتشير الآية الكريمة الأولى إلى أنّ الملك قال لملئه وحاشيته ائتوني بهذا الشّخص السّجين الذي لديه كلّ هذه المواهب فإنّ ثمّة لغزاً وراء بلوغه مرتبة الإحسان في كلّ شيءٍ من ناحيةٍ وإيداعه السّجن من ناحيةٍ أخرى . فلمّا جاء الرّسولُ يوسفَ عليه السّلام ووصل إليه وطلب منه أن يخرج من السّجن وأن يقابل الملك أصرّ يوسف عليه السّلام على ألّا يخرج من السّجن حتّى تثبت براءته ، وها هو ذا عليه الصّلاة السّلام يأمر الرّسول أن يرجع إلى سيّده الملك وأن يسأله : « ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ » وما حالهنّ وشأنهنّ : « إنّ ربّي بكيدهنّ عليم » وإنّ الله جلّ وعلا بمكرهنّ محيط . في المسند والصّحيحين[1] : « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ ، ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعي ، ونحن أحقّ من إبراهيم إذ قال له : أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي » .

والحقيقة أنّ قول يوسف عليه السّلام : « فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ » بمثابة الزّناد الذي يهيج القضيّة ويشعلها ويعيدها جَذَعةً وشابّة لأنّ السّؤال عجيبٌ وغريب ، ولأنّ السّؤال في الوقت ذاته حييٌّ وأديب . واهتمّ الملك ذاته بالمسألة وأخذ السّؤال الذي طرحه يوسف عليه السّلام يستدعي بقيّة الأسئلة حتّى انتهى الأمر إلى الوصول إلى أصل المشكلة وأساس المصيبة وهو مراودة امرأة العزيز يوسف أوّلاً ومنافسة النّسوة بعد ذلك امرأة العزيز في المراودة ذاتها وكان جزاء طهر يوسف عليه السّلام وعفّته في ذلك المجتمع البعيد عن الله تعالى أن يُسْجَن ، وفي المقابل أن يُطْلَق سراح المجرم ، أن يُكْوى الصّحيح ويُتْرك المريض الأجرب يرتع حرّاً طليقاً !

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أنّ الأمر انتهى بالملك إلى أن طلب مثول امرأة العزيز والنّسوة بين يديه ، ليس من أجل أن يطرح عليهنّ السّؤال الحييّ الأديب الذي طرحه يوسف عليه السّلام ولكن من أجل أن يطرح على المرأة والنّسوة السّؤال الصّريح الذي يستطيع أن يطرحه الملك العادل وحده أو القاضي العادل : « ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه » ما شأنكنّ وعلّتكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه واجتهدتنّ بكلّ لطائف الحيل أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ وصحيح البخاريّ ٩٧/٦ وهذه رواية البخاريّ .

تخدعنه عن نفسه فيتورّط في حبائلكنّ بتزيينٍ من نفوسكنّ الأمّارة بالسّوء وتسويلٍ من الشّيطان الرّجيم . وهنا ينفجر النّسوة قائلات : « حاش لله ما علمنا عليه من سوء » ومعاذ الله وتنزيهاً له جلّ وعلا ما علمنا على يوسف أدنى قدرٍ من سوء . وهنا يستيقظ فجأةً ضمير امرأة العزيز فتعلن على رءوس الأشهاد بأنّ الحقّ حصحص الآن وظهر واتّضح وبأنّها هي التي راودت يوسف عليه السّلام عن نفسه وبأنّه من الصّادقين في كلّ ما قال . ويعتبر هذا الاعتراف من امرأة العزيز تحوّلاً منها باتّجاه الخير ، وذلك يذكّرنا باعترافها أمام النّسوة بمراودة يوسف عليه السّلام عن نفسه ولكن مع التّحوّل باتّجاه الشّرّ والتّمادي في الغيّ على نحو ما جاء في الآية الكريمة الثّانية والثّلاثين : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونناً من الصّاغرين » .

ونعتقد ــ والله تعالى أعلم ــ أنّ امرأة العزيز بعد أن أدلت باعترافها أمام الملك والملأ والنّسوة لم تستطع أن تنبس ببنت شفة ، وبناءً على ذلك تكون الآية الكريمة التّالية التي ينتهي بها الجزء الثّاني عشر وكذلك الآية التّالية المرتبطة بها معنويّاً والتي يبدأ بها الجزء الثّالث عشر ليستا على لسان امرأة العزيز إنما هما على لسان يوسف عليه السّلام لسببٍ غايةٍ في الأهمّيّة هو أنّ معاني هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن أن تنبعا إلّا من مشكاة النّبوّة . أمّا امرأة العزيز فقد كانت تسير في خطّها غير المستقيم في ذلك المجتمع غير الدّينيّ فأنّى لامرأة العزيز أن يجري على لسانها شيءٌ من هذه المعاني وهي التي لم تكد تلتقي بيوسف عليه السّلام ، مصدر الهدى الوحيد بإذن الله تعالى في ذلك المجتمع ، منذ أن آثر يوسف عليه السّلام أمام امرأة العزيز والنّسوة السّجن على ما يدعوه النّسوة إليه من سوءٍ وفحشاء ، ومنذ أن دعا ربّه جلّ وعلا أن يصرف عنه كيدهنّ . وبناءً على ذلك يكون ثمّة بلاغةٌ بالحذف المفهوم ضمناً والمتعلّق برضا يوسف عليه السّلام أن يخرج من السّجن بعد ثبوت براءته فشكره لله تعالى ، وتواضعه الجمّ لله تعالى مربّيه بنعمه وآلائه ، المنقذ له من كلّ ورطةٍ ، الآخذ بيده في كلّ امتحان ، وذلك في الآيتين الكريمتين التّاليتين .

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقة بالآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ وما أبرّىء نفسي إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلّا ما رحم ربّي . إنّ ربّي غفورٌ رحيم ﴾ .

يقول يوسف عليه السّلام في الآية الكريمة التي ينتهي بها الجزء : ذلك الإصرار منّي على ألّا أخرج من السّجن قبل أن تثبت براءتي ليعلم العزيز أنّي لم أخنه بالغيب في أهله وقد تأكّد له بشهادة الشّاهد في حضرته أنّ امرأته هي التي راودتني عن نفسي ، وليعلم العزيز وسواه أنّ الله سبحانه وتعالى لا يهدي كيد الخائنين ولا يسدّد مكر الماكرين ولا يأخذ بأيدي الذين يخونون الآخرين في أي صورةٍ من الصّور وفي مقدّمتها الخيانة في الأهل بهتك الأعراض وارتكاب السّوء وإتيان الفحشاء .

أما الآية الكريمة التّالية المرتبطة بهذه الآية الكريمة والتي يبدأ بها الجزء الثّالث عشر فإنّها تبيّن التّواضع الجمّ لنبيّ الله تعالى يوسف عليه السّلام وتصوّر عميق هضمه لذاته في جنب الله تعالى الذي ربّاه بنعمه ، وأنقذه من كلّ ورطة ، وكشف عنه كلّ سوء ، وأجابه كلّ مرّة دعاه مضطرّاً إليه خاشعاً خاضعاً مخبتاً منيباً . إنّ يوسف عليه السّلام يقرّر أنّه لا يبرّئ نفسه ولا يزكّيها لأنّ النّفس الجنس أمّارةٌ بالسّوء إلّا نفساً رحمها ربّ يوسف عليه السّلام وربّ كلّ شيء الغفور لمن استغفره وتاب إليه ، الرّحيم بالإرشاد إلى الاستغفار وقبوله ، والحثّ على التّوبة وقبولها ، والحضّ على الإيمان وعمل الصّالحات إلى أن يتفضّل الله تعالى بتجاوز مرحلة محو السّيّئات إلى تبديلها حسنات . سبحانه ما أعظم شأنه : ﴿ لا يُسْأَل عمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسألون ﴾[1] .

وليس بخافٍ الدّرس العظيم الذي يلقيه علينا يوسف عليه السّلام في التّواضع وهضم النّفس حقّها امتثالاً لقول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ فلا تُزَكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى ﴾ .

وصلّى الله وسلم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الأحد ١٤١٣/٩/٢٨هـ
الموافق ١٩٩٣/٣/٢١م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣ .

(٢) سورة النّجم ٣٢ .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدمـــــة		٧
أولاً : تمام سورة هود		٩
بين يدي التّفسير		٢٥
التّفســـير		٣٩
الله تعالى الرّزّاق العليم الخالق ، وجنس الإنسان يئوسٌ في الضّرّاء ، فخورٌ في السّرّاء إلّا المؤمنين	٦ ـ ١١	٤١
الرّسول نذيرٌ بكلّ القرآن المتحدّى بعشر سورٍ مثله ووجوب الإخلاص في العمل	١٢ ـ ١٦	٥١
عذاب الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى وثواب المؤمنين المخبتين إلى ربّهم	١٧ ـ ٢٤	٥٩
نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له	٢٥ ـ ٣٥	٦٧
نجاة نوحٍ عليه السّلام والمؤمنين من الطّوفان وغرق الكافرين	٣٦ ـ ٤٩	٧٧ ـ
هودٌ عليه السّلام يدعو عاداً إلى عبادة الله تعالى وقد كفرت ربّها فبعداً لعاد	٥٠ ـ ٦٠	٨٩
صالحٌ عليه السّلام يدعو ثمود إلى عبادة الله تعالى وقد كفرت ربّها فبعداً لثمود	٦١ ـ ٦٨	٩٧
الملائكة تبشّر إبراهيم عليه السّلام وزوجه بالولد ، وإبراهيم يجادل في قوم لوطٍ عليه السّلام الّذين حقّ عليهم العذاب	٦٩ ـ ٧٦	١٠٥
قوم لوطٍ عليه السّلام يصرّون على إتيان الذّكران فيجعل الله تعالى عالي قراهم سافلها	٧٧ ـ ٨٣	١١٣
شُعَيْبٌ عليه السّلام يدعو مدين إلى عبادة ربّها وقد كفرت ربّها فبُعْداً لها كما بعِدَتْ ثمود	٨٤ ـ ٩٥	١٢١
موسى عليه السّلام يدعو فرعون وملأه إلى عبادة الله تعالى فيكفرون فيلعنهم الله تعالى في الأولى والآخرة	٩٦ ـ ٩٩	١٣٣
عذاب الأشقياء في الأولى والآخرة أليم ، ونعيم الأتقياء في الأولى والآخرة مقيم	١٠٠ ـ ١٠٨	١٣٩
أمرٌ للمصطفى ﷺ والمؤمنين بالاستقامة وإقام الصّلاة والصّبر ، ونهيٌ عن الرّكون إلى الظّالمين الّذين سيعذّبون	١٠٩ ـ ١١٥	١٤٧
وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِق له مِنْ عذابٍ أو رحمة ، وتثبيتٌ لفؤاده ﷺ ، والقرآن موعظةٌ وذكرى	١١٦ ـ ١٢٣	١٥٥

الموضـــــــــوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
ثانياً : سورة يوسف حتّى نهاية الجزء الثّاني عشر		١٦١
بين يدي التفسير		١٧١
التّفســـــير		١٨٣
القرآن الكريم يقصّ أحسن القصص ، ومنه قصّة يوسف عليه السّلام الّـذي علّمه ربّه تعبير الرّؤى	١ ـ ٦	١٨٥
يوسف عليـه السّلام يجعلـه إخوتـه في غيابـة الجبّ فتلتقطـه سيّـارةٌ وتبيعـه في مصر بثمنٍ بخسٍ	٧ ـ ٢٠	١٩٥
يوسف عليه السّلام في بيت العزيز وتجربته عليه السّلام المريرة مع امرأة العزيز ..	٢١ ـ ٣٥	٢١٥
يوسف عليه السّلام في السّجن يكرمه الله تعالى بالنّبوّة وتعبير الـرّؤى فيدعـو إلى التّوحيد ويعبّر رؤيا الفتيين	٣٦ ـ ٤٢	٢٣٥
يوسف عليه السّلام يعبّر رؤيا الملك ويرفض الخروج من السّجن حتّى تثبت براءته	٤٣ ـ ٥٢	٢٤٥
فهرست الموضوعات		-
		٢٥٥